السيّاب : الانسانُ وَالشاعر

بقلم مطاع صفدي

كنت دائما ما اتساءل قبل ان يمضي عنا بدر شاكر السياب ، اترى هل خطرت ببال واحد من جيلنا من الكتاب فكرة ان يسعى الى الخلود ؟..

لقد كان جيلنا ولا شك اقل تواضعا من اي جيل اخر من الكتاب ، واشد طموحا ايضا ، بحيث لم يحفل بالخلود ، ولا ارقته مشكلة ان يكتب لاناس لم يولدوا بعد . بل من شدة تحرقنا اننا كنا باستمرار ضحايا الحاضر الملتهب من حولنا . وكانت معاناتنا للزمن ، اسرع من ان تقفز الى مرحلة سكون في الابدية . ولذلك عندما انتهى (بدر) الى الشوط الاخير من رحلته القصيرة ، كنا نشعر جميعا ، ولعله كان هو ايضا يشعر مثلنا ، ان الموت ليس مرحلة نهائية لسقوط الثمرة الناضجة . انه خطف . انه ابتسار . وانه انقطاع مفاجيء ، لا معقول ، بل هو ينبوع اللامعقول كله في قصة الاديب الملتزم .

لقد كان (بدر) منشغلا ، وكذلك كل شقي من جيل الكتاب المعاصر له ، بالناس والاحداث والمسؤوليات الكبرى ، حتى لم يخطر بباله انه سوف ينقضي هو بمثل هذه البساطة .

بدر شاكر السياب ، كما كان من اوائل الرواد في ملحمة الشعر العربي الحديث ومسؤولياته القومية والانسانية ، كذلك كان اول من اختطفه الموت من بيننا . وذلك ما يدعو الى الذهول .. ولو للحظة !

وبالرغم من ان (بدر شاكر السياب) كان جسده قد مات منذ سنوات ، فانه بقي يملك حضورا بيننا . فلم يكف بدر عن نظم الشعر حتى لحظاته الاخيرة . وهو عندما دخل غيبوبة الموت ، كان يستيقظ لدقائق فيكتب قصيدة ، ثم يعود الى سبات الموت .

لقد عاش بدر الموت سنوات طويلة ، احسه بقدميه ، متصاعدا الى ساقيه الى جذعه ، وصولا به الى رأسه ، الذي بقي وحده حيا ، طيلة سنوات ، من معاقرة الموت في الاعضاء والجسد كله .

ومنذ قصائده الاولى اكتشف قدر الصلب ، بالنسبة للمبدع ، وخاصة المبدع على ارضنا ، ومن خلال احداث جسام توالت على ارض هذه الامة وانسانها ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

ومنذ قصائده الاولى فجر ينابيع الحزن الميتافيزيقي في الشعر العربي الثائر . لقد انبلجت الثورة في ادبنا الجديد من الحزن . وليس كالسياب في الواقع ، شاعر الحزن الاكبر في قافلتنا كلها .

لقد عاشر حزنه في روحه وعقله ، مثلما عاشر الموت في اعضائه وجسده فيما بعد .

ومن قدر الصلب اشتق اغانيه . ولذلك لم يحفل مرة بالخلود . وحتى عندما راح يواجه موته البطيء كان يثق انه ذاهب الى .. عدم مطلق . ولكنه رفض ان يتخلى عن (وعيه) في رحلة العدم ذاك . ولذلك فان مجموع قصائده الاخيرة ، كانت سلسلة من محاولة تقييم الموت اثناء الحياة . فلقد اتيح الشاعر ان يواجه مصيره ، بكل ما لديه من وسائل التفجع . ولعل قصيدة (شناشيل ابنة الجلبي) (1) هي ذروة الديوان الاخير للشاعر . وهي بالتالي تؤلف السياق الوجداني لتقييم الحياة كلها . من وجهة نظر النهاية المحترمة :

ثلاثون انقضت ، وكبرت : كم حب وكم وجد
ترهج في فؤادي
مددت الطرف ارقب : ربما ائتلق الشناشيل .
فأبصرت ابنة الجلبي مقبلة الى وعدي
ولم ارها . هواء كل اشواقي ، اباطيل
ونبت دونما ثمر ولا ورد

لقد كان الزواج من ابنة الغني ، رمزا دائما لذلك الانعتاق من الواقع ، للتفوق على بؤس الروح والمجتمع الكادح من حول الشاعر . لقد كانت تلك هي السعادة التي لا لون لها ، لا شكل لها ، لا اسم لها . ولكنها مع ذلك مزركشة مزخرفة ، عالية ، ووراءها تختفي ابنة الجلبي ، التي لا تطال .

ولقد كانت الحركة التي تسير بموجبها روح الشاعر ، منذ ان تعرف الى طريقه الخاص بالنظم والمعاناة ، كانت حركة استرجاع للاصول . للطفولة في قرية جيكور ، لسعف النخيل ، لبويب نهر القرية .

ومنذ ان بدأ رحلة الاغتراب الطويلة ، عندما اضطر الى اللجوء الى ايران ، ايام كان شاعرا للشيوعيين في العراق ، وفي مرحلة من رومانسية النضال ، واصطدامها الاول مع حكم (نوري السعيد) ، كان اغترابه الروحي يتضح لوعيه من قلب المعاناة ، على مستوى الواقع والفكر معا . ومن هنا ، فان هذا الاغتراب بصورتيه ، المكانة والروحية ، كان ابرز ما يميز المضمون الانساني لانتاج الشاعر .

ولقد اتحد ، في تجربة الشاعر ، الحنين الى الاصول المجهولة ، بالحنين الى النهاية ، التي تضع حدا ، لهذا الاغتراب الطويل في العالم .

ولعل الديوان الاخير هذا ، هو تجسيد مباشر لهذا الارتحال بين عواصم غربية . ولكنه ارتحال من مستشفى الى مستشفى ، من غرفة مظلمة وحيدة ، الى غرفة اخرى . كان ينتقل من باريس الى لندن ، دون ان تتاح له فرصة التعرف الى شيء من حياة هذه المدن الكبرى . كان كسيحا ، وكان يحمل على نقالة . وكانت المستشفيات هي مسكنه الدائم ، خلال السنوات الثلاث او الاربع الاخيرة .

(1) ـ المقصود من كلمة شناشيل (الشرفة) . ومن كلمة ابنة الجلبي ، ابنة رجل من الاعيان وذلك باللهجة المحلية لمدينة البصرة .

مرثية الى اخي بدر

ان جئت أكلل قبرك بالزهر
ونظرت الى .. فلم تعرفني
أحبابك يا بدر ملايين
وأنا من أحبابك يا بدر .
أمس أتانا الخبر المر
ان أخانا بدر قضى
فوقفنا بضع دقائق في صمت
ثم جلسنا
لكن الحزن ،
لم يتركنا
والى أن نلحق بك يا بدر
سيظل الحزن يلازمنا .
« المومس » (١) كانت عمياء يا بدر
أما انت
حين أتيت أزورك بعد هبوط الموت
ولقد سبلوا جفنيك
شاهدتك حيا
وانبعث بريق من عينيك المغمضتين
فلقد احييت الاموات بدنيانا
كيف ترى لا تحيي نفسك يا بدر ؟
ومددت ذراعي لاصافح يدك الممدوده
لكن .. آه
آه يا بدر
فلقد ظلت يدك الممدودة ممدوده
وتصور لي جوف القبر
والجسد الميت تنهش ساعده الدوده !
لما ودعت الدنيا يا بدر
لم يكن الوتر الصافي قدم من الحانه
ما يطفىء فينا ظمأ طال
حقا .. قدمت لنا الماء زلالا
وشربنا منه
لكنا كنا ننتظر مزيدا يا بدر
مثلك لا يسأمه الناس
اذ ادركت قضايا الناس
ورأوا فيك طليعة فجر .
عفوا يا بدر !
عفوا ان قلت : وداعا !
وأعدت الى الجنب ذراعا !
وتركتك في القبر شراعا .. غيبه اللج
عفوا يا بدر !
فالامة ما زالت منتظره
أن يصنع احبابك يوما فجر النصر
أن يركز أحبابك يوما ،
في الدنيا أعلام الثوره .
فلتهدأ في قبرك يا بدر
اهدأ فرفاقك يا بدر
أكثر من أن يشملهم في يوم حصر .

القاهرة

عبد الرحمن غنيم

(١) اشارة الى قصيدة « المومس العمياء » للشاعر الفقيد.

ومن خلال هذه المأساة المباشرة ، ارتبطت احاسيس الشاعر بنغم واحد ، هو الموت ، والمدخل الشعوري اليه :

من خلل الدخان ، من سيكاره
من خلل الدخان
من قدح الشاي ، وقد نثر ، وهو يلتوي ، ازاره
ليحجب الزمان والمكان ،
حدثنا جد ابي فقال : « يا صغار ،
مغامرا كنت مع الزمان ،
نقودي الاسماك ، لا الفضة والنضار ،

فمن حياة هي مغامرة في العبث ، ومن اجل العبث ، كان يتأكد جوهر الاغتراب الحقيقي لدى الشاعر ، الى ان تجسد في هذا القتل المادي البطيء لجسده ، تحت وطأة الشلل .

فأن يموت الانسان ، تلك اوضح الحقائق وابسطها . ولكن موت الشاعر ، وشاعر كبدر شاكر السياب ، يظل له معناه الخاص . فكل نهاية لا بد ان تقيم مما يسبقها . لذلك لم يتعب الفكر والادب في اكتشاف الموت ، مع موت كل انسان . ان حياة المبدع هي التي تعطي لموته فرديته الخاصة . وحتى لو مات (بدر) بعد خمسين عاما ، فسيظل هذا الموت مفاجأة . وبالتالي فلا بد من عملية استخلاص لمعناه الخاص ذاك .

ولربما كان لمن عرفه من اصدقائه ، وانا واحد منهم ، ان يذكروا (بدر) وكأن الرجل لم يصنع شاعره من انسانه ، ولكنه دأب على اكتشاف انسانه من شاعره . لقد ولد هذا الشاب ، اكثر الشباب نحولا وحياء ، من وجوده ووجود العالم حوله ، اكثر الشباب حرمانا وعاطفية وعفوية ، ولد من اجل ان يظل الشعر هو اداة حياته كلها .

ومن الحنين الى ما قبل الوعي ، الى الطفولة والقرية ، الى الحنين الى الموت لم يكن لبدر ثمة عمر الا الاحساس بالاغتراب اينما كان . وبالرغم من ان الالم المادي القاهر ، قد شد هذا الانسان الى الارض دائما ، الا ان حزنه الفطري ، العفوي ، كان يحوله من قصة مريض الى مأساة بطل .

***

السيـــاب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

ذلك هو معنى الشقاء والنهايـــة ، بالنسبة لانسان مبدع عظيم :

وباق هو الليل بعد انطفاء البروق
وباق هو الموت ، ابقى واخلد من كل مافي الحياة
فيا قبرها افتح ذراعيك . .
اني لات بلا ضجة ، دون آه !

ذلك هو القول « نعم ! » للحقيقة الباقية ، كمـا قال نيتسه للحياة ان : نعم ! ومن خلال هـــذا الحنين الاعمق للسر الاعمق ، تلونت كل اشياء الحياة بمعنى تفجعي رثائي ، الزوجة ، الاطفال ، نوافذ البيت عـلى الطريق ، النخيل . ويشاء عمر الشاعر القصير ، الا يخرج بعد ديوانه الكبيـر (انشودة المطر) ، الا نشيد واحد متصل من الرثاء الحي ، هو في طريقه الى الموت .

ومن خلال عشرات القصائد التـــي تكرر النغمـــة الواحدة ، لا يقدم الشاعر الا ابسط صورة عـــن الانسان المحتضر . ومن بين عدة قصائد رثائية متتابعة ، قـد تبرز واحدة ، مثلا (سفر ايوب) لتبرز بلون مـــن التحـدي العميق ، الذي يتسلح بالصبر ، ويحول الالام والرزايا الى هدايا الحبيب . والمفروض أن الشاعـــر لا يعترف بشيء على الطرف الثاني من الجسر . ومـــع ذلك فانه يتحدى بالصبر . هذا الحبيب الذي انزل به كل هـــذه المصائب المتواليـــة .

ان عفوية الرثاء عند (السياب) تعفيه مـــن قلـق السؤال ، وبالتالي من تمزق شيطاني . انه مستسلم للالم ، ولا يفعل شيئا سوى انه يتحدى مـن خلال الاستسلام . انه لا يريد شفقة ولا تعاطفا سخيفا مع الناس . حتـــى زوجته ، فهو يشك ان محبتها له قد تحولت الى شفقة . ولذلك فان (السياب) يألم لوحـــده ، ويتصور البعـد والظلمة والدود ، بنوع من اليقين السلبي . انه ينتظر . . وخلال درب الانتظار ، يقول الشعر . والمرصد والموت في الشعر ، قد يشدان جناحيه الـــى واقع اهم . ولذلـك اصبحت قصائده الاخيرة ، ومنذ سنوات عديدة عبارة عن مواجهة عارية دائمة لاكبر حقائق المعاناة : الالـم والموت . وحتى عندما يخامره الامل احيانا بالنجاة ، ومن قلب لندن (في لندن الليل موت ، نزعه السهر ، والبرد والضجر) ، فانه أمل خجول عابر ، كالآتي :

اني سأشفى ، سأنسى كل ما جرحا
قلبي ، وعرى عظامي ، فهي راعشة والليل مقرور
وسوف امشي الى جيكور ذات ضحى !

***

تلك هي صرخات (السياب) الاخيرة ، منذ ان اقعده المرض عـن حياة الشاعر الثائر التي عرفها قبل اكثر من عشرين عاما . فلقد ولدت عبقرية (السياب) من ثورة الفن والنضال معا . فكان واحدا من الذين مهدوا لكل هذا الذي يسمى اليوم الشعر الحديث . وكان كذلك واحدا من الذين تفننوا في تنويع القوالب ، الشعرية ، وفـي انفتاح المضمون الشعري على اعمق التزامات الانسان العربي المعاصر .

فقراء هذا الجيل ، مازالوا يذكرون قصائده الطويلة ، الغنيـــة بالصور والايقاعات ، والمطلة على قضايا الثورة ، كتفجرات وهاجة مـن المعاناة القومية والتقدمية . لقـــد ولدت ملحمـة (المومس العميـاء) و (حفار القبور) ، في المرحلة الاولى من انبثاق الشعر الطليعي الملتزم في البلاد العربية ، وفي العراق خاصة .

وكانت ذروة هذه المرحلة قد تمثلت في ملحمة مرثية (جيكور) . وتبعتها (انشودة المطر) ... ثم تناثرت قصائد قومية مختلفة ، لاحقت احداث الامة العربية خلال السنوات العشر الماضية ، من (بور سعيد) الى حرب الجزائر ، الى ان تعرض الشاعر الى اكبر صدمة انسانيـــة عقائدية في حياته النضالية ، عندما شهد الارهاب الاحمـــر المنحرف ، ايام (قاسم) في العراق . وكان (السياب) قد تخلى عن الشيوعية قبل حدوث الانحراف القاسمي في العراق بسنوات . ولكن الصدمـــة ارست في شعر (السياب) ايقاع التفجع منذ ذلك الوقت . كما انهـا مهدت لذلك الشلل الذي اصاب جسده . فلقد كانت فصول الارهـاب الدموي ، اعنف من ان يصمد لها كيان ذلك الشاعر العفوي ، المستغرق بحياة امته وشعبه .

واذا كان بعضهم قد اخذ على الشاعر المريض ، تردده فـي موقفه السياسي من جانب الى اخر ، فذلك التردد لـم يحدث فـي الواقع الا ابان المرحلة الاخيرة من حياة الشاعر ، عندما اصبح نهبا للالام والوحدة والفقـــر (١) .

لقد حاول (السياب) من خلال ملحمتي (المومس العميـــاء) و (حفار القبور) ان يبتكر نـــوع البنـاء الملحمي الكبيـر فـي الشعـر العربي المعاصر .

ان (المومس العمياء) تقترب من الملحمة بالمعنى التراجيدي ، مـن حيث ضخامة البناء الشعري وطول النفس الابداعي ، وحركـة الوصف والسرد ، وتركيز شيء من فعالية التضاد بيـــن الصـور والحـــالات ، والاستعارات الفنية .

لقد دخل شيء من النسج القصصي لاول مرة ، من خلال سيـاق تراجيدي وتراكمي الى حد ما ، الى الشعر العربي المعاصر ، بهـــذه القصيدة الطويلة . وبالرغم من ان الشاعر ، لم يستخدم هذا النموذج من القصص الشعري ، من اجل تنمية رمزية ، تتخطى حدود الحادثـة المادية ، الا ان عضويته المبدعة ، قد اغنت هيكل القصيدة بسيل مـن الصور الفاجعية ، واللفتات الانسانية ، وبادوات متنوعة ، من اجـــل استقطاب التاثير الايحائي لدى خيال القارىء وشعوره ، كل ذلك قـد فتح الباب واسعا امام تجارب ارحب واكثر تطورا في المعنى الملحمـي ، لدى شعراء طليعيين اخرين .

ولكن تجربة (السياب) ، في هذا المضمار ، تظل شبه فريـدة . اذ ان البناء الملحمي قد تحول لدى الشعراء الاخرين الى ما يشبه البناء السمفوني ، الذي يتخلى عن الحدث المادي نهائيا ، ليستغرق في تنمية العناصر الميتافيزيقية للعمل الفني الشعري ، كما هو مثلا عند خليـــل حـــاوي .

فمن تلك الصور الرائعة التي زفرت بها قصيدة (المومس العمياء)

---

(١) لا بد لي في هذه المناسبة من ان اقدم شهادتي قيما يتعلـــق بالظرف المرضي والنفسي الذي كان عليه السياب ، عندما اضطر الـــى ان يرسل الى (قاسم) عام (١٩٦٢) قصيدة مديح . فلقـد شهدت ، انا وادباء عروبيون كبار من لبنان ، بينهم الدكتور خليل حاوي ، الحالة المريعة التي تدهور اليها الوضع الصحي للشاعر ، بعد ان تآمر عليـــه احد الاطباء الاجانب المشعوذين فجمد نصف جسده في قالب من الجص ، امتص بقية الحيوية من ساقيه . وكان الشاعر بـــلا مال ولا اعالـــة . فارسل هؤلاء الادباء برقية لقاسم ، من اجـل مـد الشاعر المعيد بشيء من المال . وكان ذلك هو الحل الوحيد آنذاك . واما الموقف الحقيقـي للسياب ، فهو الذي تفصح عنه سلسلة من قصائده الكبيرة ضد الانحراف الارهابي في العراق ايام قاسم ، وقصائده القومية الاخرى .

ما ينفلت من اسار التشعب الخيالي لـــدى الشاعر ، ليرتبط بوضع مصيــري :

ويح العراق ! اكان عدلا فيه انك تدفعين
سهاد مقلتــك الضريره
ثمنا لملء يديك زيتا من منابعه الغزيره
كي يثمر المصباح بالنور الذي لا تبصرين

عند هذا الجسر بين الحدث ، وبيـــن العمق القومي ، تتفـوق القصيدة على نفسها ، لتصبح ذات طاقة رمزية ايحائية كبيرة . حتـــى اذا ما تتابعت الصورة ، تأكدت الوحدة العضوية بين الرمز وبين الثورة:

عشرون عاما قد مضين ، وانت غرثى تأكلين
بنيك من سغب ، وظماى تشربين
حليب ثديك وهو ينزف من خياشيم الجنين

ذلك هو معنى الوضع اللامشروع كله للانسان العربي في العراق ، ابان الاحتلال الانكليزي وصنيعته ، الحكم الملكي الرجعي :

وتسهرين ولا عيون ، وتصرخين ولا شفاه
وغدا بحبلك تشنقين
وغدا .. وامس .. والف امس ــ كأنما مسح الزمان
حدود مالك فيه من ماض وآت
ثم دار ، فلا حدود
ما بين ليلك والنهار ، وليس ، ثم ، سوى الوجود
سوى الظلام ، ووطء اجساد الزبائن ، والنقود
ولا زمان ، سوى الاريكة والسرير ، ولا مكان !

تلك هي القضية ، التي تقهر بين ايدي تجارها وسماسرتها ، مـــن محترفي الكذب العلني . وذلك هو النوم في كهف خارج الزمان والمكان ، على ايقاع اللامشروعية ، وتصبح الكوارث الحضارية هـــي مفاصـــل الزمن الرديء .

من خلال قصيدتي (حفار القبور) و (المومس العمياء) ، حاول (السياب) انيختصر ملحمة الوجود الانساني المعذب ، من خلال النفس الشعري التقليدي بالوزن والقافية ، والمجدد اوسع تجديد من حيـث استخدام الوحدة التراجيدية ، بالصور والالوان والحركـــة النفسية المتنوعة . فلقد غاص (السياب) على اعماق نفسية المومس ، وهي اكبر رمز للانسان المستهلك في المدينة الحديثة . عندهـــا تتجمع رواسب المجتمع ، وحول جسدها تتلوى اجساد الرجال المنهكة المتعبة ، وفـــي ماخورها المظلم ، يعاقر الرجال رذائلهم ، بنوع مـــن التلــذذ بتعذيب الوجدان والعقل . فان العجز الذي يشل الرجال عن التعبيد فـــي عالمهم ، يدفعهم اخيرا الى عالم الاقبية ، حيث تستباح النفوس العاجزة، لتمتزج بالصديد من كل قلب عفن :

الليل يطبق مرة اخرى ، فتشربه المدينه
والعابرون ، الى القراءة .. مثل اغنية حزينه
وتفتحت ، كأزاهر الدفلى ، مصابيح الطريق
كعيون ((ميدوزا)) ، تحجر كل قلب بالضغينه
وكأنها نذر تبشر اهل ((بابل)) بالحريق

لقد صور (السياب) في هذه الملحمة ، بشكل فريد فـــي الشعر الحديث كله ، قصة الذل كله ، عندما يبدأ بافتراس بـــراءة الانسان ، منذ أن يولد فقيرا ، ويدرج على اساليب بيع قوته للاخر . وكذلـــك تبيع المراة الفقيرة جسدها ، لطلاب اللذائذ ، الذين هم مباعون فـــي تجارات المدينة بطريقة اخرى . واذ يصف (السياب) العاهرات ، وهن في مرحلة استهلاكهن ابان الكهولة ، يتفجع للبراءة التي كن يتمتعن بهـا وهن اطفال . وكان الاصل اذن هو هذه البراءة السابقة على كل تلوث وتشويه . والناس متساوون في البراءة . والناس ايضا ، هم الذيـن اخترعوا الظلم والاستثمار ، وبذلك قضوا على البراءة ، سواء في نفوس الاسياد ، او نفوس العبيد . يقول السياب واصفا حالة التعهير مـــن الداخـل :

عـــدد ((الآداب)) القادم

عدد ممتاز

يضم افضل الدراسات والابحاث التي قدمت الى مؤتمر ادباء العرب فـــي دورته الخامسة التي تنعقد في بغداد

من ١٥ الى ٢٥ شباط (فبراير) الحالي

جيف تستر بالطلاء ، يكاد ينكر من رآها
ان الطفولة فجرتها ، ذات يوم ، بالضياء .

الى ان يقول :

والريح صر ، والبغي بلا زبائن منذ حين
ان لم تضاجعها وصد سواك عنها معرضين
فكيف تحيا ، وهي مثلك لا تعيش بلا طعام ؟

ويحدثنا الشاعر كيف استبيحت الطفلة الصغيرة مـــن قبل جنود الاستعمار ، وهي ابنة فلاح فقير سرق رغيفا فقتل :

والله ــ عز وجل ــ شاء
ان تقذف المدن البعيدة والبحار الى العراق
آلاف آلاف الجنود ليستبيحوا في زقاق
دون الازقة اجمعين
ودون آلاف الصبايا ، بنت بائعة الرقاق

الى ان يقول :

الله ــ عز وجل ــ شاء
الا يكن سوى بغايا اوجواضن او اماء
او خادمات يستبيح عفافهن المترفون ..

ذلك قدر الانثى في بلاد ، الرجل فيها اله صغير ، وان استعبده رجل اخر ، الا ان الانثى هي التي يمكن ان يذلها حتـــى العبد نفسه ، ما دام رجلا .

وعندما يصور الشاعر ترقب الانثى البغي للزبون ، يكاد يلمـــح القارىء أن الشاعر يرمز الى وضع الترقب المسكين لكـــل انسان ، ارتبط مصيره بالصدف العمياء :

وتعد وقع خطى ــ وتشرئب ، وكاد يلمس .. ثم راح .
وتدق في احد المنازل ساعة .. لم تستباح .

والبغي ، او الامة المستعمرة المستثمرة ، لن تستسلم ، ما دام ينمو في قلبها ذلك الحقد المقدس :

ستجوع عاما او يزيد ، ولا تموت ، ففي حشاها
حقد يؤرث مـــن قواهـا
ستعيش للثار الرهيب
والداء في دمها ، وفي فمها ، ستنفث من رواها
في كل عرق من عروق رجالها شبحا من الدم واللهيب .

ومن خلال العمى والظلم والوحدة والجوع تتساءل البغي :

كل الرجال ؟ واهل قريتها ؟ اليسوا طيبين
كانوا جياعا ــ مثلها هي او ابيها ــ بائسين
هم مثلها ــ وهم الرجال ــ ومثل آلاف البغايا
بالخبز والاطمار يؤتجرون ، والجسد المهين
هو كل ما يتملكون ، هم الخطاة بلا خطايا

وهكذا ، فلقد ارتبطت موهبة الشاعر منذ البدء بقضايا الانسان في امته وبلاده . ودونما قسر خارجي ، فلقد وجد نفسه ملتزما الالم والجوع .. ثم الثورة :

هذا طعامي ايها الجائعون
هذي دموعي ايها البائسون
هذا دعائي ايها العابدون :
ان يقذف البركان نيرانه
ان يرسل الفرات طوفانه
كي تشرف الظلمه
كي نعرف الرحمه

وحين اندلعت الثورة الكبرى في العراق ، التي مهد لها الشاعر بمجموعة من قصائده الاولى ، ذات القيمة الاساسية بالنسبة لانتاجه كله ، وعندما اصاب الثورة ذلك الانحراف الارهابي الدموي ، كتب الشاعر كذلك اكبر مراثيه . ومنذ ذلك الحين ارتبط وجدان الشاعر بذكريات الانحراف الدموي ايام (قاسم) ، حتى انهكته نفسيا وعصبيا. ودخل الشاعر مرحلة النهاية . وتوالت قصائده في رثاء نفسه . وكانت مجموعة من الشعر العاطفي الحزين ، المتوهج فوق الالام الجسدية والروحية ، التي عاناها شاعر الرثاء العربي الاكبر : بدر شاكر السياب.

***

واذا ما القى احدنا نظرة تسترجع مراحل رحلة الشاعر القصيرة في عالم الانسان ، وما خلفته هذه الرحلة الفنية الخصبة من محصول شعري رائع ، لاستطاع ان يحدد القيمة الطليعية التي يحتلها السياب بالنسبة لتاريخ الادب العربي الحديث . لقد دخل (السياب) عالم الشعر الحديث ، وهو مؤهل بموهبة فذة ، وعفوية خصبة ، قلما تمتع بها شاعر معاصر . وجمع الى الموهبة قوة البناء الشعري ، وفحولة اللغة ، وغناها بالمفردات والقوافي والايقاعات . حتى استطاع ، على عكس كثير من دعاة الشعر الحديث ، ان يخلق نوعا من الاستمرار بين التراث وبين اساليب التجديد .

لقد قدر للسياب ، ان يكون واحدا من طلائعيي الشعر الحديث . واكثر من ذلك ، فانه ارسى الكثير من فنون التجديد في هذا الشعر ، ستصبح بمثابة تقاليد اساسية . منها استخدام الرموز والاساطير اليونانية والمسيحية والاسلامية ، منذ بدء المرحلة المعاصرة ، على الرغم من ان استعماله ذاك للرموز الوثنية والدينية ، لم يتطور الى بنية متكاملة . ولكنه ظل اداة اساسية ، من ادوات الايحاء والتصوير ، عبر فيض من الاستعارات ، التي تطفح بها قصائد السياب .

وبالرغم من انه قد سار نحو الاشكال الجديدة الحرة من النظم ، الا ان كثيرا من قصائده الكبيرة (كحفار القبور) و (المومس العمياء) و (الاطفال والاسلحة) و (بور سعيد) ، قد حافظت على الاوزان التقليدية ، من حيث انتظام قافية واحدة لعدد من الابيات ، وثبوت عدد التفعيلات في كل بيت ، ما عدا بعض مقاطع صغيرة ، تنحبس داخل السياق شبه التقليدي ، لتدخل نغما جديدا للقصيدة . ولا شك في ان السياب ، وهو من اوائل الذين اختطفتهم يد المنون من جيلنا ، كان رائدا حقيقيا للثورة في الفن والثورة في الواقع القومي والتقدمي للامة . ولقد استطاع ان يدمج حياته الشخصية ، بحياة الناس من حوله دائما . وكان وجدانا حساسا لافراح الامة ومآسيها . ودون ان يبتذل الالتزام الشعري ، فلقد اغناه دائما بثقافة مرهفة ، وقدرة على الابداع ، فريدة . حتى يعتبر من اكثر القراء خصبا وانتاجا ، لم يعجزه المرض ولا النزاع الطويل عن متابعة الكتابة ، وتحويل هواجسه الى اغان للغسق والغروب .

ان قراءة جديدة لشعر (السياب) ، توحي بأن الرجل قد ترك وراءه تراثه الحقيقي ، وان موته المبكر ، لم يقطع الطريق امام حياة فنية خصبة ، سوف تتجدد مع تجدد طاقات الابداع في الاجيال المعاصرة والقادمة .

فالسياب استاذ كبير كذلك ، في مدرسة الشعر الحديث . ولسوف تصبح دراسته ، من اهم ما يحتاجه كل شاعر جديد ، بالرغم من ان حياة الشاعر القصيرة لم تمهله كثيرا حتى يطور من وضعه الطليعي ، ليبلغ مراحل اكثر قدرة على استيعاب الآفاق الفنية ، التي يملكها الشعر الجديد .

وبعد فان (السياب) كانسان كان بالنسبة لنا ، نحن زملاء طريقه ومأساته ، من اصدق النماذج العفوية الطلقة، المتفجرة عاطفية ونبلا . حتى اخطاؤه الصغيرة ، فان شخصيته الصادقة ، كانت هي المحك الاساسي لتقييمه . وخاصة ان تلك الاخطاء ، او ما يريد بعضهم ان يذكرونا بها دائما ، كانت نتيجة مرحلة المرض الرهيب ، الذي اجتاح جسده واعصابه . ولكن روحه بقيت دائما عالية فوق المرض والخطأ نفسه .

***

واعود الى القول :

ان السياب ، هو اصدق اوائل القافلة في الوجود الادبي الثوري ، ومن اوائل من اختطفه العدم من بيننا . فما زالت مسؤولية وجوده وابداعه ، من مسؤولية جيلنا كله ..

وامام هذا التقييم تثبت حقيقة السياب ..

لقد كان شاعرا عظيما .

مطاع صفدي

قريبا جدا :

آفاق الفكر المعاصر

باشراف غايتان بيكون

تأليف نخبة عالمية معاصرة من اساطين الاختصاص

تتناول جميع ميادين المعرفة

يقع هذا الكتاب في اكثر من ٩٦٠ صفحة من القطع الكبير .

من مواده :

١ ـ الفكر الفلسفي
٢ ـ السيكولوجيا المعاصرة
٣ ـ العلوم الاجتماعية
٤ ـ فلسفة التاريخ
٥ ـ اوضاع ومسائل سياسية
٦ ـ مسائل الفن المعاصر واشكاله
٧ ـ الفكر الديني
٨ ـ العلوم الرياضية والفيزيقية
٩ ـ البيولوجيا
١٠ ـ المذاهب الانسانية المعاصرة

الثمن ٢٠٠٠ غ. ل.

منشورات عويدات

ص. ب ٦٢٨ بيروت ـ لبنان

تلفون ٢٤٢٦٦٠